النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي "الآداب"

ج . ع . م .

رسالة القاهرة من سامي خشبة

العودة الى الماضي !

***

كان تأمل الماضي ودراسته في محاولة للوصول الى اعماقه الحقيقية البعيدة ، او للاحتفال ببعض ذكرياته والاحتفاء بها هو محور نشاط القاهرة الثقافي في الشهرين الماضيين ، بينما انتقل مركز الاهتمام الفني ومجال المناقشات « المثقفة » من المسرح الذي قدم ثلاثة عروض هزيلة وسيئة ، الى السينما التي قدمت ثلاثة افلام جديدة ـ كلها عن الفلاحين او تدور احداثها في ريف مصر ـ تفاوتت جودة او رداءة بما احتواه كل منها من عناصر التقدم الفني احيانا الى جانب التخلف الفكري .. واحيانا تنعكس الآية ليبرز الفيلم وجله فكريا متقدما تقيده الاساليب الفنية الهزيلة المضحكة .

عدنا الى الماضي في الاحتفال بالعيد الالفي للقاهرة ، وفي الذكرى الخمسينية لثورة ١٩١٩ . ولكن الاعمال الفنية والثقافية التي قدمت احتفالا بعيد القاهرة الالفي ، لم تعد الى الماضي في شيء لانها ـ كلها او معظمها ـ جاء في صورة « الهدايا » من العواصم الاجنبية : اسبوع للفيلم السوفياتي وعرض لفرقة من فرق الرقص الشعبي السوفياتي من موسكو ، واسبوع للفيلم الفرنسي ومعرض لاعمال فن التصوير الفرنسي الحديث والمعاصر وعروض مسرحية من فرقة الكوميدي فرانسيز من باريس ، واسبوع للفيلم السويدي من ستوكهولم ، واخيرا اهدت القاهرة لنفسها عرضا مسرحيا موسيقيا راقصا هزيلا لم يسمع به احد . وبينما اصدرت مؤسسة النشر التابعة لوزارة الثقافة كتابا او اثنين عن القاهرة يصلحان كدليل للسياح وان لم يكتب عليهما انهما كذلك ، كان الكتاب الذي اصدرته مؤسسة دار الهلال هو العمل الثقافي الوحيد الجدير بالمناقشة ، بما في ذلك « اعمال » الاسابيع السينمائية والاستعراضات والعروض المسرحية ، ومعارض الفن التشكيلي . فرغم ان الاسبوع السوفياتي تضمن فيلما مأخوذا عن رواية تولستوي العظيمة « أنا كارينينا » ، وتضمن الاسبوع الفرنسي فيلما للمخرج المشهور آلان رينيه ، وتضمن الاسبوع السويدي فيلما للمخرج الذائع الصيت التجديدي انجمار برجمان ، رغم أن كلا من هذه الاسابيع قد تضمن « فيلما » جيدا ، فان هذه الاسابيع ـ او بقية افلامها ـ قد برهنت بصورة تلقائية ودون تعمد على ان موظفي وزارات الثقافة يتشابهون ـ فيما يبدو ـ في كل البلاد ، سطحية وغباء وجهلا بما يحب الناس في البلاد الاجنبية أن يشاهدوه من انتاج بلادهم الفني . اما عن الاستعراضات والعروض المسرحية ، فان فرقة موسيف للرقص الشعبي او فرقة الكوميدي فرانسيز قد خضعتا لتقاليد « دار الاوبرا الملكية » في القاهرة ، فباعت وزارة الثقافة فنهما لملاك السيارات عن طريق « الحجز الخاص » ، وبالذات لملاك السيارات ذات اللافتات الخضراء التي كتب عليها « هيئة سياسية » ، وبذلك نستنتج ان هذه العروض كانت مخصصة لموظفي السفارات الاجنبية حتى تتيح لهم وزارة الثقافة فرصة الابتهاج بمناسبة مرور الف عام على بناء القاهرة . اما عن معرض التصوير الفرنسي فلست احسبني كفؤا للحديث الفني عنه ، ولكنه كان يضم اعمالا لماتيس وسيزان ومانيه وبيكاسو وجورج روو ومونيه .. وغيرهم .. ولذلك فقد استمتع به مثقفو القاهرة بعظمة وبغزارة لانه كان رخيص التكاليف ، ومفهوما ، رغم انه انتهى بحادثة « مروعة » من وجهة نظر صحافة القاهرة ، ولكني اراها حادثة طبيعية جدا . فقد القى احد المتفرجين ـ وهو مجهول حتى الآن ـ بزجاجة حبر على لوحتين لا اذكر اسميهما او اسمي صاحبيهما . والغريب ان وزارة الثقافة قررت ان تغلق المعرض بعد هذه الحادثة التي ما زال التحقيق فيها مستمرا . والحق انني اعتقد انه لو كان مرتكب هذه الفعلة مصريا، فان هذا يدل على تطور عظيم في مستوى التلقي الفني عند جمهور متذوقي الاعمال التشكيلية عندنا . لان هذه الفعلة تدل على اصابة مرتكبها ـ ربما طبعا ـ بنوع من الجنون الفني الذي لا يظهر الا في مواجهة الاعمال الفنية ، وبالذات الاعمال الفنية من نوع معين يستثير جنونه ، وهذا معناه انه يعرف الفن جيدا ، ويتذوقه بطريقة معقدة ، وينفعل به الى درجة حادة ، ويتخذ موقفا ايجابيا مما يتذوقه وينفعل به . اعتقد ان مرتكب هذه الفعلة انسان رفيع الثقافة محب للفن التشكيلي حبا حقيقيا .

***

العمل الثقافي الوحيد اذن ، الذي صدر عن « القاهرة » في عيدها الالفي ، والذي يستحق المناقشة في اطار الغرض الذي خصص من اجله، هو الكتاب الذي اصدرته دار الهلال . والكتاب اسمه « القاهرة » وهو من تاليف صحفي ودارس انجليزي للتاريخ اسمه ديزموند ستيوارت . وهو لانه صحفي وانجليزي ـ أو رغم انه صحفي ولانه انجليزي ايضا ـ فانه يتحدث احيانا عن تاريخ القاهرة ، فيلمسه لمسات سريعة وسطحية تدل على فهم تقليدي ساذج لهذا التاريخ ، ولكنها ايضا لمسات تدل على مقدار ما يشعر به هذا الصحفي الانجليزي من حزن على غيبة امراء اسرة محمد علي الظرفاء الكرماء ، الذين كانوا يبنون قصورا جميلة لها حدائق شرقية اصيلة ، تتيح لزوارها فرصة الحصول على الاطعمة الاوروبية بنكهتها الاصلية وفرصة الاستمتاع بروائح ازهار الشرق التي لا تنبت في اوروبا الا تحت بيوت من الزجاج . وهي القصور التي ـ يا للخسارة ـ قد تحولت الان الى متاحف وفقدت رومانتيكيتها وجلالها الشاعري . كما تدل لمسات ديزموند ستيوارت على مقدار حزنه لان القاهرة شرعت في كنس اكوام التراب والقاذورات ـ رغم استمرار تكاثر الذباب ـ الشيء الذي يؤدي الى فقدان العاصمة الشرقية الافريقية لاصالتها وعراقتها التاريخية التي كانت تعجب السياح بشرط الا تزيد اقامتهم في فنادقها على اسبوع والا اصبحوا عرضة لعدوى الحميات المختلفة !

وقد ترجم هذا الكتاب الاستاذ الاديب الكبير يحيى حقي ، وكتب له مقدمة طويلة ـ في حجم نص الكتاب تقريبا ـ استاذ الجيوبولوتيكا المدهش الدكتور جمال حمدان . وهي مقدمة حشد فيها مؤلفها كل مصطلحات علوم الجيوانتروبولوجيا والجيوهيستوسوسولوجيا، ووصف فيها القاهرة بأنها عاصمة كنتوارية واكروبوليسية تحولت الى مدينة ريفرية ، وبأنها عاصمة ـ مثل كل العواصم الاخرى ـ متروبوليتانية علاوة على انها مونوبوليزانية ايضا ، لكي لا نفهم في النهاية بعد جهد جهيد وصبر طويل اكثر من انها عاصمة مركزية جدا ، تضم اخلاطا من البشر ، وانها مزدحمة بصورة مفزعة ودون عائد حقيقي لهذا الازدهار ، وانها مشوشة التركيب وغير منظمة البناء ، وانها عاصمة نشأت اولا على التلال الصخرية ثم زحفت الى نهر النيل . ولكنه يقول ايضا انها لم تزحف فقط غربا الى النهر ، انما زحفت ايضا شمالا نحو البحر ، بدليل نشأة حي شبرا ، وتحول المركز المركانتيلي الجوهري عن الموسكي والعتبة شمالا الى شارع ٢٦ يوليو ثم شمالا ايضا الى شارع طلعت حرب وقصر النيل . واذا تأملنا قليلا هذا الخلط العقلي الغريب

لوجدنا وجهة نظر محدودة وضيقة الافق الى حد بعيد ، تحدها تضاريس التلال الصخرية ومنعرجات الانهار وتلهيها هذه التضاريس عن النظر الى الناس الذين يعيشون فوقها ويبنون مدينتهم عليها . التاريخ هنا يتحول الى بهلوانيات سطحية تصنعه « اقدار » المناخ والسطح وتغير مجاري الانهار بانتقالها بضعة كيلومترات نحو اتجاه ما ، ولا علاقة للناس بهذا التاريخ ، ولا علاقة لتكوينهم الاجتماعي او نموهم السياسي والاقتصادي او « الالتواءات » العقلية التي اصيبوا بها . لا يعتقد الدكتور جمال حمدان ان زحف المركز التجاري للقاهرة من العتبة والموسكي الى شارع ٢٦ يوليو ثم الى شارعي طلعت حرب وقصر النيل لم يكن مجرد تعبير عن الزحف نحو الشمال بقدر ما كان تعبيرا عن عملية الاستئصال الحضاري المستمر للماضي التجاري المحدود بامكانيات السلع الزراعية ، وبمؤثرات الطبقات المسيطرة القديمة ، صغار التجار وعلماء الازهر نظار الاوقاف واصحاب قوافل الجمال السائرة بين القاهرة والسودان او بينها وبين الشام او تونس ، وان انتقال هذا المركز التجاري ـ وتغير طابعه تغيرا كاملا بظهور البنوك وادارات الشركات الصناعية وشركات التامين ـ قد كان تعبيرا عن تغير اجتماعي وسياسي واقتصادي شامل شهدته مصر منذ بداية القرن الحالي . وربما كانت هذه القاعدة الاجتماعية السياسية الاقتصادية هي التي حكمت كل التغيرات « المورفولوجية » التي شهدتها القاهرة في الفترة نفسها ، بل والمجتمع المصري كله ، بل اننا نعتقد ان هذه التغيرات المورفولوجية قد كانت تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية اكثر منها مجرد تغيرات في شكل المدينة ونوع سكانها وتوزيع هؤلاء السكان على الاحياء ! .

ونحن نعتقد ان موضوع الكتاب نفسه ـ وموضوع مقدمته ـ بالغ الاهمية . ورغم ان وجهة النظر السياحية المتسرعة ـ والتي تقف موقف العداء لنمونا الاجتماعي والسياسي بوضوح في كثير من مواقع الكتاب ـ كانت كافية لرفضه ، واذا كان ليحيى حقي عذر في اختيار الكتاب من عشقه الرومانتيكي للقاهرة ، فلا نعتقد ان للمسؤولين عن اصدار الكتاب نفسه في دار الهلال عذرا مماثلا ، وهم ليسوا من الرومانتيكيين على قدر علمنا . اما الدكتور كاتب المقدمة ، فقد سبق لنا في رسالة مماثلة ان اشرنا الى عشقه الشديد للجغرافيا وحرصه على ان يفسر كل شيء في حياة الناس على ضوئها . الا ان الكتابة عن مدينة القاهرة ـ في مقدمة لكتاب يتحدث اساسا حول انطباع اجنبي سريع عن تاريخ هذه المدينة وسكانها وحياتهم ـ نعتقد ان هذه الكتابة كانت تستلزم مناقشة لهذا التاريخ وحياة هؤلاء السكان اكثر مما تحتاج الى استعراض بهلواني لتاريخ تحول المدينة من مدينة اكروبوليسية الى مدينة ريفرية (اي من مدينة تبنى على التل الى مدينة تقع على شاطىء نهر) . البشر وتاريخهم هم محور اهتمامنا في مثل هذا الكتاب ومثل هذه المقدمة ، وليس زحف الساكن من التل الى النهر ولا عشوائية رسم الشوارع او سوء تنظيم المصانع وفقا لاتجاهات الرياح ، رغم ما قد يكون في هذه الافكار الاخيرة من اهمية لمهندس التنظيم .

***

اما الرجعة الثانية الى الماضي في هذا الشهر ، فتتمثل في ذلك الاهتمام الواضح بثورة ١٩١٩ وذكراها الخمسينية . وتحتل هذه الثورة في التاريخ المصري الحديث مكان الذروة التي بلغتها الروح النضالية عند البورجوازية المصرية في المعركة الوطنية . كما انه من الممكن ان تعتبر البداية الحقيقية لتاريخنا المعاصر الذي ما نزال نعيش في آثاره حتى الان .

ومنذ انقضاء مرحلة هذه الثورة ، صدرت كتب كثيرة ودراسات متعددة كشفت عن الكثير من ابعادها : دوافعها وتطوراتها ونتائجها . ساهم في هذه الدراسات مؤرخون متخصصون ـ على اختلاف ميولهم الفكرية التي حكمت تحليلاتهم ـ من عبد الرحمن الرافعي الى شفيق غربال الى الدكتور محمد انيس وغيرهم . كما ساهم في هذه الدراسات صحفيون وسياسيون محترفون مثل فكري اباظة وحافظ رمضان وعباس رضوان وحافظ محمود ـ من الجيل الذي عاصر الثورة وساهم فيها ـ ثم شهدي عطية الشافعي وابراهيم عامر وفوزي جرجس ومحمد عمارة ورفعت السعيد .. الخ. ورغم الاختلافات الفكرية الواسعة ـ مرة ثانية ـ التي ادت الى خلافات جوهرية بين كل هؤلاء الكتاب في تحليلاتهم ومنظوراتهم السياسية الى الثورة ، فانهم جميعا ، ودون استثناء تقريبا قد ركزوا على الجانب السياسي الرسمي منها : ماذا حدث في قصر الدوبارة ، او في قصر عابدين او في رئاسة مجلس الوزراء او في مجلس النواب او في الغرف التجارية او في البورصة .. الخ. ، فانصبت تحليلاتهم ومنظوراتهم جميعا على الاحداث التي دارت على مستوى القمة السياسية ، رغم الاقوال المتناثرة منذ كتاب الرافعي الى اخر مقال لرفعت السعيد في عدد مجلة « الطليعة » القاهرية الصادر في اول فبراير ـ شباط الماضي ، والى اخر حلقة من سلسلة الدراسة الممتازة التي تنشرها جريدة « الاهرام » يوميا عن « اسرار جديدة عن ثورة ١٩١٩ » ـ رغم الاقوال المتناثرة عن الدور الذي لعبته « الافكار » في هذه الثورة . هناك اقوال متناثرة عن افكار « شخصيات » متفردة من مثل عبد الله النديم او مصطفى كامل او علي يوسف او محمد فريد او شبلي شميل او يعقوب صروف او محمد عبده في « التهيئة » للثورة ـ ايجابا او سلبا ـ او مقدار ما تمتعت به هذه « الافكار » من صدق في التعبير عن تطور « العقلية » المصرية منذ ثمانينات القرن الماضي الى عشرينات هذا القرن ، وما تمتعت به من قدرة « الفكر » الخالص على التاثير في الواقع بعد خروجه الشرعي او المتعسف من رحم هذا الواقع نفسه ، في كل ما كتب عن ثورة ١٩١٩ تقريبا ، ورغم اختلاف المناهج الفكرية التي تتحكم في هذه الكتابات ، لا نجد دراسة واحدة عن « الفكر » المصري في هذه المرحلة ـ ولا في اي مرحلة على الاطلاق ، باستثناء كتاب واحد للدكتور لويس عوض ، كان قد صدر عن معهد الدراسات العربية في القاهرة ، لانه كان في الاصل مجموعة من المحاضرات التي القاها الدكتور في هذا المعهد وجمعت باسم « المؤثرات الاجنبية في الفكر المصري الحديث » ثم اعاد المؤلف نشر الجزء الاول من كتابه بعد تعديلات وتنقيحات ثانوية وبعض الاضافات الجوهرية باسم « تاريخ الفكر المصري الحديث ـ الخلفية التاريخية » وصدر منذ شهرين في سلسلة كتاب الهلال . ولكن كتاب الدكتور لويس عوض يتركز حول مرحلة « نشوء » تيارات الفكر المصري الحديث ، وهي المرحلة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن عشر تقريبا حتى منتصف القرن التالي مع انتهاء حياة محمد علي . ثم يتركز الكتاب ـ مرة ثانية ـ حول التيارات الفكرية «السياسية» اساسا : تيار الفكرة القومية ، وتيار الفكرة الديمقراطية ، او موضوع الوطن واصول الحكم. ورغم الكشف التاريخي البالغ الاهمية الذي حققه المؤلف عن دور ثورات البدو والفلاحين في تطوير هذين المفهومين او القضيتين ، ونتيجة لتركيزه عليهما وحدهما دون القضايا الفكرية الحيوية الاخرى وتجاهله لها ، وهي التيارات المرتبطة اعمق ارتباط بالتكوين العقلي والروحي للمجتمع المصري ـ واعني بها تيارات الفكر الديني المنعكس على قضايا التعليم والاخلاق والفن والتكوين النفسي والحضاري للشعب كله ـ نتيجة لهذا يخرج المؤلف بخريطة ناقصة ومشوهة لحركة نشوء الفكر المصري الحديث ، الامر الذي يؤدي به الى نتائج وتصورات ناقصة ومشوهة ايضا . لقد كان تطور الفكر الديني دافعا فعالا واساسيا من دوافع الحركة الاجتماعية والسياسية والقانونية علاوة على حركة تطور التعليم والفن ـ وبالتالي على حركة تطور التكوين النفسي للشعب كله في هذه المرحلة الانتقالية الحادة ، وهي المرحلة التي يتناولها كتاب الدكتور لويس عوض بالذات . ويكاد يكون من المستحيل ان نحلل اي حركة او تيار او موقف عام في هذه المرحلة او نتثبت من صحة وحقيقة اي شيء منها دون ان ندخل هذا الدافع في اعتبارنا . ويمكننا ان نتصور ما تم من تطور في خلال هذه الاعوام المائة من تصورنا لموقف زعماء الحركة الوطنية المصرية ازاء الحملة الفرنسية وازاء الجنرال يعقوب القبطي الذي تعاون مع الفرنسيين ، ومقارنة هذا الموقف بموقف زعماء

الحركة المصرية الوطنية بعد هذا التاريخ بمائة عام او يزيد قليلا من « ويصا واصف » رئيس مجلس النواب المصري الذي كان صاحب اكثر المواقف حدة في قضية الدفاع عن الدستور والحكم النيابي في ازمة سنة ١٩٢٠ . لقد تجاهل لويس عوض تماما العامل الديني الذي حرك الجنرال يعقوب في اتجاه ممالأة الحملة الفرنسية والعمل لحسابها ـ عسكريا وبوليسيا ، ضد الانجليز والاتراك وضد الشعب المصري نفسه ـ بينما ابرز هذا العامل أبرازا واضحا كدافع فعال في تحديد موقف مشايخ الازهر من نفس الحملة . وبينما يتجاهل المؤلف حقيقة يقررها بنفسه عن تكليف اخر قواد الحملة « الجنرال مينو » ليعقوب بتكوين جهاز مخابرات في مصر والشام يعمل لحساب الفرنسيين ، اذا به يعامل مشروع الجنرال العميل عن أستقلال مصر والذي تقدم به الى احد قباطنة سفن الاسطول الانجليزي (!) معاملة شديدة الجدية ويعتبر الجنرال يعقوب ممثلا للامة المصرية كلها ! متجاهلا هذا الاحتمال الشديد الوضوح والذي يؤدي الى اعتبار مشروع يعقوب خدعة ساذجة دبرها الفرنسيون مع يعقوب ظنا منهم ـ او منه هو على الارجح ـ انه قادر بهذا المشروع على خداع الانجليز وتحويل انظارهم عن مصر بعد خروج الحملة الفرنسية منها مهزومة ومستسلمة .

وايا كان امر كتاب الدكتور لويس عوض وامر مصادره فهو بالتأكيد محاولة بارزة في سبيل دراسة تاريخ الفكر المصري ، كعمل يكرس نفسه اساسا لبحث هذا التاريخ دون ان يشغل نفسه بقضايا مختلفة اخرى . ومن المؤكد اننا قد نجد في اعمال متناثرة محاولات لاكتشاف جوانب معينة من تاريخ الفكر المصري الحديث ، وغالبا ما تنصب هذه المحاولات في اتجاه تحليل الموقف الفكري لشخصية من الشخصيات البارزة ، ولكننا لا نجد اي محاولة تقريبا لدراسة «التيارات» الفكرية التي نشأت في بحر الثورة المصرية ، تعبيرا عنها او تأثيرا فيها . ومرة اخرى قد نلمس هذه التيارات من بعيد اثناء دراسة لشخصية معينة ! قد يشار الى تيار الجامعة الاسلامية اثناء الحديث عن جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، وقد يشار الى التيار القومي (دون تأصيل للفكرة القومية نفسها) اثناء الحديث عن عبد الله النديم او مصطفى كامل او محمد فريد او لطفي السيد ، وقد يشار الى تيار الفرعونية اثناء الحديث عن لطفي السيد ايضا او سلامة موسى او توفيق الحكيم، وقد يشار الى تيار الفكر العلمي اثناء الحديث عن رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وشبلي شميل ويعقوب صروف وسلامة موسى وطه حسين، وقد يشار الى تيار التجديد في الفكر الديني اثناء الحديث عن محمد عبده ورشيد رضا وامين الخولي واحمد امين . ولكننا لا نعثر على دراسة شاملة لمصادر نشأة هذه التيارات ، والظروف الاجتماعية والعقلية الخاصة التي انشأتها ، ومسار حركة كل تيار والتغيرات التي طرأت على مساراتها ، وتفاعلاتها المتبادلة ، بحيث نحصل في النهاية على الخريطة الفكرية الكاملة للمجتمع المصري في اثناء مروره بمرحلة من اهم مراحل تاريخه الحديث واكثرها كثافة وحدة ، وحتى نتمكن من الحصول على فهم واضح لطبيعة التكوين النفسي والروحي والعقلي لشعبنا وحقيقة استعداداته وردود فعله ودوافعها واحتمالاتها .

ورغم ما للجهود الفردية المتناثرة في هذا السبيل من قيمة ـ مثل الجهد الذي بذله الدكتور لويس عوض واشرنا اليه ، او ذلك الذي يبذله امير اسكندر في جريدة « الجمهورية » منذ شهور في حلقات متصلة تحت عنوان « الفكر المصري الحديث » وان لم يكن قد انتهى من حلقاته بعد ، اقول انه رغم ما لهذه الجهود الفردية من قيمة فمن الواضح ان مهمة كتابة تاريخ فكري وعقلي لامة نشيطة عاشت مراحل متلاحقة من التمزق الاجتماعي والسياسي والروحي انعكس بكل حدته على عالمها العقلي ، مهمة اكبر من ان يتسع لها جهد باحث او دارس واحد ، اللهم الا ان كان هذا الباحث فيلسوفا كلي الاهتمامات شامل المنهج والنظرة من نوع كانت او هيجل او راسل . ونعتقد ان قصارى ما قد يصل اليه نجاح الباحث ان يحسن تحديد هدفه ـ مثلما استطاع الدكتور لويس عوض ـ واغلب الظن انه لن يفلح في حصر مجالات موضوعه وفي تتبعها عرضيا وطوليا ـ مثلما فشل نفس المؤلف ـ الى القدر الذي يسمح له بالحصول في النهاية على تصور منهجي كامل عن التاريخ الفكري الحقيقي لهذه الامة في العصر المعين الذي يدرسه .

القاهرة — سامي خشبة

العراق

« الحواجز »

علامة في المسرح العراقي

***

الحواجز : المسرحية الجديدة التي قدمها اخيرا الكاتب الشاب (مهدي السماوي) علامة أخرى تنطلق في شكل ومضمون جديدين اذ تحتضن في شرائحها الفنية صراعا وحركة تبني حيوية العمل واشراق دلالاته لتخرج بتجربة رائدة تكسر غلاف الركود بحدة وتعلن عن ولادة حقة شرعية للمسرحية العراقية التي تلتزم بالواقع وتصدر عنه وتحقق القيمة النهائية للعمل الفني .

تدور المسرحية التي تقع في فصلين اولهما تحت اسم : البحث ، والثاني : التخطي والتي تعتمد على الوحدة المكانية وتتصاهر في هيكل يمثل لنا البناء الخالص للعمل ، عن صراع لا حد له بين مواقف متعددة، ولنحاول ان نمسك بخيوط المسرحية التي تستعصي شاعريتها على التلخيص المنطقي الجامد . ومنذ البداية نتعرف على الجذور التأريخية للقضية : قضية فلسطين ونتعرف على الشخصيات الرئيسية وهي (المواطنون) : الاول والثاني والثالث والذين يبحثون عن طريق الخلاص الكامل لحل الازمة فهناك أرض يمتلكها الثلاثة وهم منقسمون على أنفسهم .. فالمواطن الاول يرفض ان يتخلى عن الارض ويرفض اقامة الحواجز بينه وبين المواطنين : الثاني والثالث حيث يمارسان اشكالا عديدة للوقوع الذي يؤدي بالمواطن الاول الى تهافت تام ، غير انه يقضي على اللجوء الى الحسم الكامل في القضية بينه وبين المواطنين وهنا تصل المسرحية الى اعلى درجات الصدق والموضوعية للاحداث التي رافقت اعوام النكبة والتي تمخضت عن انهزامية الانسان وانسلاخه عن أرضه تحت وقع تأثيرات باهظة . وتناول المسرحية لهذه الازمة اكسبها نوعا من شمول الرؤية للحياة الانسانية بكل أبعادها ، وهناك قضية أخرى فكل الحلول التي تأتي كبديل لمحاولة تفرق في ظل عداء سافر لقضية المواطن الاول العادلة .

وعن طريق كشف جوانب أخرى للمسرحية نلتقي بشخصية ـ الصياد ـ الذي عاش حياة خشنة قاسية تحت واقع صلب كان قد قضاه مع اليهودي صاحب المراكب مما أدى به الى الانفصال اخيرا ، هذا الانفصال الذي يعمق احساسه بالظلم ، ففي اعماقه يستعر صراع بين الواقع الكائن وقواه التي تحاول التمرد والثورة .

وفي تفهم عميق للمضمون المركب تقدم المسرحية مضامينها في حركة تباعد في الزمان وتحمل في داخلها معنى مغايرا لما نعارف عليه لتشكل المواجهة الواعية التي تضعنا أمام مواقف جديدة بخلطها بين الواقع الممكن وغير الممكن ، بين الحاضر والماضي في مشاهد سريعة تتداخل في ليونة تختزل كل اساليب المباشرة والتقرير الساذجة .. لقد نجح الكاتب المسرحي مهدي السماوي في تقديم شكل يدل على نضج فني فيه التداخل الكثيف الذي يوحي بتعقيدات القضية ذاتها وتشابكها الشديد موضوع مأساة فلسطين وكفاح الانسان ومرقه في اطار هذا الوضع الحرج .

فالمواطن الاول كشخصية ايجابية يمثل الانسان الذي يهجر الغوص في الحياة الناعمة مؤثرا الموقف الرافض لكل الحلول الناقصة ..

اما الدرويش فقد تميزت شخصيته بجدية التجربة والرصانة

والعمق . فالكل يبحث عن جذور توغل في الامتداد قد تكون عن طريق المساومة كما في مواقف الدرويش والمواطنين الثاني والثالث ، وهنا تتأكد مدى استحالة ان تتلاقى مواقف متباينة ، لذلك فالجانب الايجابي للقضية يرفض التعامل بمنطق التخلي الى تعامل بمنطق التخطي ، فهو بذلك بعيد عن التموضع داخل حدود ما يكفل له ، ويجد في هذا الموقف صلابة لا يمكن قهرها ، فهو بهذا المعنى ثوري رافض ويظل العبء الاكبر ملقى على الجهد الذاتي للمواطن الاول من أجل الادراك المتزايد للحياة وتنمية القدرات الشجاعة بأقدام ثابتة على أرض التجربة .

وتنتهي المسرحية نهاية مفتوحة حين يغادر الصياد والمواطن الاول المكان على أمل العودة مع الفجر ويكون الدرويش في الامر معبرة عن ردم هوة الواقع الفاسد ومن ثم تجاوزه واستكمال شروط تكون الواقع الآتي عبر المعايشة والنقد الذاتي . ويهتف كورس الاطفال بحماس الطفولة : الجيل الجديد الذي يحمل سمات الاشراق والانكشاف على عالم حقيقي ، عالم يعيد فيه الانسان خيوط انتمائه للارض بشكل أكثر قوة وصميمية عن ذي قبل وأشد تلاحما .

وبذات الروح الشعرية التي غلبت على اعماله الاخرى : (المخاض)، (حصان محترق الاطراف) ، (اصوات) يؤكد الاستاذ مهدي السماوي انه يقف على رأس كتاب المسرح في العراق وانه فنان ثري يستطيع ان يقدم الكثير . وانه واعد .

حاول الكاتب بعمق وبذكاء ان يستهدف من خلال البناء العام للمسرحية تكثيف الابعاد الشاملة للواقع باستحضار جوهر الاصالة الحقيقي لكل الجذور الضاربة في أرض التجربة التي صنعها تأريخ واقعي محسوس أنصهرت ضمن خطوطه وبعديه الزماني والمكاني كل مواقف الخصب والجدب على حد سواء . وهنا وصل عن طريق استقطاب المضمون الانساني الهادف الى فض الشكل واكتشاف قيمة انسانية عامة . فهو لم يقدم رصدا تأريخيا لواقع ما بعد النكبة ولكنه استجلى حقيقة القضية بوجودها التأريخي وتأرجحها بين شتى التحولات ، ايجابية كانت أم سلبية ، والتي تعرقل وضوح الهدف الذي يعني الخلاص .

وهذا الغضب الذي ما لبث أن تبلور بهيأة موقف لدى الصياد نضج من خلال تطور سريع وتلقائي وهو سواء بجوانب اصالته ام بقصوره لم يكن ثوريا عاديا فأثبت من خلال ما عرفناه عبر مراحل تطوره المسرحي ارتباطه بجذره الانساني الارتباط العضوي الراسخ الذي يتخطى الحدود الجاهزة .. وقد أبدع مهدي السماوي الصياد ليكون نموذجا لثوار ما بعد النكبة الذين اكتفوا بشرف التضحية والنضال .

فما هي الشخصية الايجابية التي عكست المقولات الفكرية لهذه المسرحية وطرحتها في قالب متكامل ؟

قد تكون شخصية (المواطن الاول) .. ولكننا لا نملك اكثر من ان نقف مبهورين أمام الاحداث الاكثر نضجا والتي تضيف جديدا الى هيكل العمل فتملأه .

***

حاول الممثل (كامل حسين) ان يجسد ببراعة فائقة هذا الجانب الساذج للقضية والذي وصل أخيرا الى درجة الوعي والارتباط والتكافؤ ولم يسيطر على صوته الايقاع الواحد الذي طغى على فن الممثلين الآخرين ، فكان ينتقل ليمثل بكل دقة ويترك في اذهاننا صورة ناتئة لشخصيته بكل حدودها وبدت طبقاته الصوتية طيعة ومرنة مما ساعدته على أحداث مجموعة نقلات فنية كبيرة .

ترك الممثل (جعفر صبري حداد) بطاقته الخلاقة المثيرة للدهشة، ظلاله الحادة وبصمات شخصيته في حدود أدائه الحسن ونشاطه الذكي. والحق انه كان شديد التوفيق من خلال معايشته للاجواء ، مما ارتفع ببعض المواقف الى درجة من النضج والنفاذ والشفافية ، وهو يقدم شخصية (المواطن الثالث) .

ووفق (داود امين) في تأديته لدور المواطن الاول فاستطاع ان يحملنا الى الحس بصلابته وصموده كانسان قضية في الالقاء الجيد والتعبير الصامت والحركة ، ولكنه كان يكرر نفسه في مشاهد مختلفة ويقف عند حدود تقريرية مملة .. وربما استطعنا ان نقول انه كان بعيدا عن روح شخصيته وان يكن قد بذل ما بوسعه للارتقاء بها ، غير انه من المهم ان نسلم بقصوره عن أن يقدم الشخصية في اطارها المرسوم لها ، وقد كنا نأمل له التفوق .

اما محسن كريم : المواطن الثاني ، فقد اثبت قصوره في ان يجسد قضية فكرية ما. وعجز في الوصول الى الدلالات العامة والبعيدة للمسرحية .

اما عبد المجيد الكاظمي ونعيم جبار فقد قدما لنا شخصيتي ـ (كوهين ، حاييم) ـ اليهوديين وهما في رأيي قادران على العطاء ولكن تمثيلهما اتهام لقابليتهما وقد أجاد الاول في تجسيد شخصية اليهودي كوهين على حين لم يوفق الثاني في خلق الاقناع الكامل بشخصيته وان أعوزه التماسك وافتقر الى وضوح الصوت الفني .

وكان الدرويش : محمد علي أحمد هادئا راسخا لا يقل اجادة عن الممثلين الآخرين ليقدم لنا موقفا لجانب محدد بشكل التواطؤ السافر لازمة قهر الانسان العربي فوق أرضه برصانة الحركة والالقاء الذي يعكس الابعاد الخارجية والجوهرية للشخصية .

اما كورس الرجال فقد اداه خالد عبد الامير وطارق محسن وحيال الشامي ورياض الداغر بنجاح وتفوق ملحوظ وبأجادة واضحة ، معبرين عن الجماهير التي تتمرغ في فراغ ايديولوجي كما ينبغي ان نسجل اشارتنا لخالد عبد الامير الذي قدم عرضا ممتازا لدوره كأفضل عضو في الكورس .

وكما ان المسرحية تلغي عنصر الزمن وتحافظ على وحدة المكان بدا لنا الديكور ملائما للمضمون الهادف للمسرحية ، فامتلأت الفسحات بالكلمات القوية الدالة المتخطية للحدود القصية والاداء الصامت الذي يعبر حدود الفعل الى اتخاذ موقف ما .

واستطاع الاستاذ مهدي السماوي ان يضفي برهافة وشاعرية جوا ذا نكهة محببة في طابع المسرحية ليرتفع بها الى مستوى من الاجادة والفاعلية والمعاناة الحضارية .

والمسرحية بعد ذلك تشمل احداثا وان كانت خصبة فانها بشكل أو بآخر تحقق اضافة هامة للمسرح العراقي .

محسن الخفاجي

مؤتمر الادبـاء العرب

انعقد في بغداد من ١٩ الى ٢٨ نيسان الماضي المؤتمر السابع للادباء العرب بدعوة من وزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العراقية ، تحت شعار « كل شيء من اجل المعركة » . وقد تناول اعضاء المؤتمر بالبحث موضوعات « الادب العربي بعد ٥ حزيران » و « دور الاديب العربي في مكافحة الصهيونية والاستعمار » و « توثيق الارتباط بالتراث العربي » و « مشكلات النشر والتفرغ » . كما انعقد مهرجانان للشعر في بغداد والبصرة .

وقد نشرت « الآداب » في هذا العدد بعض ما استطاعت الحصول عليه من أبحاث المؤتمر ولم يتسع المجال لنشر توصيات المؤتمر التي صدرت في بعض الصحف .